تمهيد

بيئة الشاعر

(١) البيئة الطبيعية

بِخَوْارْزَم فى بعض القرى لى مولد وقولى له فى سُرَّة البدو منتجُ (١)

ولد الزمخشرى محمود بن عمر فى قرية من قرى خوارزم، هى قرية «زمخشر» (٢)

وكانت نسبة الزمخشرى إليها تخليداً لذكرها ورفعا لشأنها، كما عبر عن ذلك ابن وهّاس صديق الزمخشرى فى أبيات مدحه بها، منها:

جميعُ قرى الدنيا سوى القرية التى تبوّأها دارا فداءٌ زمخشرا

وأحْر بأن تُزهى زمخشرُ بامرئ إذا عُدّ فى أُسْدِ الشَّرى زمخ الشرى

فلولاه ما طنّ البلادُ بذكرها ولا طار فيها منجدا ومغوِّرا (٣)

وأما خوارزم فإنها تقع على جانبى نهر (جيحون)، وهى إقليم منقطع عن خراسان وعما وراء النهر، وحدُّه متصل بحد الغزّية مما يلى الشمال والمغرب، وجنوبيه وشرقيه خراسان وما وراء النهر، وهى ناحية عريضة، وأعمال واسعة ومدن كثيرة، ومدينتها الكبرى فى الجانب الشمالى من جيحون، ولها فى الجانب الجنوبى مدينة كبيرة تسمى الجُرجانية (٤).

وخوارزم سهلة لا جبل بها، ولهذا سُميت بهذا الاسم، فمعنى خوارزم: هيّن حربها، وذلك لأنها لا يوجد بها جبال(٥).

ولعل هذه الطبيعة الأرضية إلى جانب قربها من نهر جيحون كانت وراء ما عرفت به من كثرة الخيرات واتساع العمران، ففى حديث المؤرخين والرّحالة عنها ما يدلّ على أنها كانت كثيرة المزارع والأشجار، كثيرة الأطعمة والحبوب والفواكه

---

(١) الديوان ٤٢.

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموى ٤/٣٣٩ - ٤٠٠ (زمخشر)، والأنساب للسمعانى ورقة ٢٧٧.

(٣) أزهار الرياض فى أخبار عياض للمقرى ٣/٢٨٥ ومجلة المجمع العلمى العراقى المجلد ٢٣ سنة ١٩٧٣ ص ١٥٧ ومعجم البلدان ٤: ٣٣٩ - ٤٠٠ (زمخشر).

(٤) كتاب صورة الأرض للنصيبى القسم الأول ٤٤٧.

(٥) معجم ما استعجم لعبد الله الأندلسى (خوارزم).

والمعاصر والخيرات، متّصلة العمارة، متقاربة القرى.(١)

وعرفت خوارزم بشتائها الشديد البرودة، وياقوت يصف ذلك فيقول: «والشتاء عندهم شديد جداً بحيث إنى رأيت جيحون نهرهم، وعرضه ميل، وهو جامد،والقوافل والعجول الموقرة ذاهبة آيبة عليه» (٢).

وشعر الزمخشرى يصور هذه السمة لخوارزم، فهو يقول متحدثا عن بردها الشديد وهاجيا أهلها:

خوارزمُ مثلُ الزمهرير، وهْى إن ... قيست ببرد أهلها كالهاويه

ببردها يجمد باعا ماؤها ... وبردهم يجمده ثمانيه(٣)

ولعلها المقصودة فى هذين البيتين كذلك:

شتاءٌ تقلّصُ الأشْداقُ منه ... وبردٌ يجعل الوِلْدان شِيبا

وأرضٌ تزلَقُ الأقدامُ فيها ... فما نمْشِى بها إلاّ دبيبا(٤)

(١)كتاب صورة الأرض القسم الرابع ٤٨١ ومعجم البلدان ٣/ ٤٧٤.
(٢) معجم البلدان ٣/ ١٠٤٧٥
(٣) الديوان ٤٣٢
(٤) الديوان ٢٧٨.

(٢) الحياة السياسية

عاش الزمخشرى فيما بين سنتى ٤٦٧ هـ و ٥٣٨ هـ، وقد عرفت خوارزم فى هذه الفترة ثلاث سلطات متداخلة، كانت سياستها تدور فى فلكها، هى الخلافة العباسية، والدولة السلجوقية، والدولة الخوازمية.

أما الخلافة العباسية فكان يمثلها فى بغداد خليفة ليس له من أمر السياسة شئ،وكان ذلك الوضع استمرارا لما آل إليه أمر الخلفاء العباسيين حين اعتمدوا فى إدارة شؤون دولتهم على الأعاجم من فرس وأتراك، فاستكثروا منهم، حتى استفحل خطرهم،واستبدوا بالسلطة دون الخليفة الذى أصبح ألعوبة فى أيديهم، والتاريخ يذكر للسلاجقة أنهم كانوا أكثر احتراما للخليفة من سابقيهم، فقد اتخذوا لهم عواصم بعيدة عن بغداد التى تركوها خالصة للخليفة مما أتاح له أن يستمتع فيها ببعض السلطات، وإن كانت فى معظمهما سلطات روحية،وإلى جانب ذلك ظل السلاطين يحرصون على الظفر بموافقة الخلفاء على توليهم مناصبهم، حتى يكتسبوا الصفة الشرعية، وكان الخلفاء – لضعفهم – يمنحون موافقتهم لمن غلب (١)

ومن مظاهر استعادة الخلافة لبعض نفوذها فى هذا العصر أنه أصبح للخليفة وزير خاص به يخضع له، ولم يكن له فى عهد البويهيين إلا كاتب يدير أملاكه الخاصة.

ولعل من أسباب احترام السلاجقة للخلفاء العباسيين اعتناقهم المذهب السنى الذى كان يعتنقه العباسيون.

وعلينا ألا نسرف فى التفاؤل عند الحديث عن احترام السلاجقة الأتراك للخلفاء، فما كان هذا الاحترام ليمنع السلطان السلجوقى من الاصطدام بالخليفة إذا بدا له ذلك اصطداما يتجلى منه أن كل شئ فى يد السلطان السلجوقى، ولا شئ فى يد الخليفة،ويكفى مثالا لذلك ما تحدثنا عنه كتب التاريخ من سير السلطان

---

(١) سلاجقة إيران والعراق: للدكتور عبد المنعم محمد حسين ١٦٢.

(ملكشاه) إلى بغداد،وأمره الخليفة بتركها والرحيل عنها فورا، وبعد رجاء وتشفُّع أمهله عشرة أيام يعدّ فيها نفسه للرحيل،وكان كل ما فعله الخليفة أنه جعل يصوم فاذا أفطر جلس على الرماد، ودعا على السلطان، واتفق أن حان أجل السلطان فمرض ثم مات بعد أيام قليلة، وبذلك وحده كفى الخليفة شر هذا الرحيل الذليل (١). والخلفاء العباسيون الذين عاصرهم الزمخشرى هم:

١- المقتدي بأمر الله أبو العباس أحمد ٤٦٧ - ٤٨٧ هـ

٢- المستظهر بالله أبو العباس أحمد ٤٨٧ - ٥١٢ هـ

٣- المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن المستظهر ٥١٢ - ٥٢٩ هـ

٤- الراشد بالله أبو جعفر المنصوربن المسترشد بالله ٥٢٩ - ٥٣٠ هـ

٥- المقتفي لأمر الله أبو عبد الله الحسين بن المستظهر ٥٣٠ - ٥٥٥ هـ(٢)

وأما **الدولة السلجوقية** فإنها تنسب إلى السلاجقة، وهم فى الأصل مجموعة من قبائل الأتراك، هاجرت من أقصى (التركستان) واستقرت فى إقليمى (ما وراء النهر وخراسان) ،وتسمت باسم «سلجوق بن تقاق» الذى جمع شملها، ووحدها تحت زعامته، فخضعت له ولأبنائه وأحفاده من بعده (٣)

ويمكن أن يعدّ عام ٤٢٨ هـ بداية قيام دولة السلاجقة، ففيه انتصروا على الغزنويّين وملكوا خُراسان،ودخلوا قصبات البلاد، وجلس زعيمهم «طغرل بك» على عرش «مسعود» الغزنوى بنيسابور، وخُطب له فيها بالسلطان المعظم(٤) ولم تلبث دولتهم أن اكتسبت الصفة الشرعية، فقد اعترف الخليفة العباسى بها وبسلطانها «طغرل بك» سنة ٤٣٢ هـ.

---

(١) انظر النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى ٥/١٣٤ وأخبار الدول وآثار الأول مخطوط بدار الكتب ٤٨٠ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ٤٢٥ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٢) انظر موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الإسلامية د. أحمد شلبى ٣/٤٣٠.

(٣) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ٩/١٧٦ حوادث سنة ٤٣٢ هـ وسلاجقة إيران والعراق ١٦، ١٧.

(٤) الكامل فى التاريخ ٩/١٧٩ حوادث سنة ٤٣٢ هـ.

ولدت الدولة السلجوقية قوية، فتية، فاستطاعت أن تسيطر بسرعة على جانب كبير من العالم الإسلامى، وعلى كثير من ممتلكات دولة الروم فى آسيا الصغرى والمناطق المجاورة لإيران.

ولم تلبث الأسرة السلجوقية أن انقسمت إلى خمسة بيوت يهمنا منها (السلاجقة العظام) وهم الذين ملكوا خراسان والرى وجبل والعراق والجزيرة وفارس والأهواز، كما استولوا على خوارزم سنة ٤٣٤ هـ (١) فأصبحت منذ ذلك التاريخ إمارة تابعة لهم يحكمونها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

وقد عاصر الزمخشرى من سلاطين هذه الدولة:

١- جلال الدين أبو الفتح ملكشاه ٤٦٥ - ٤٨٥ (٢)

٢- ناصر الدين محمد ٤٨٥ - ٤٨٧ هـ (٣)

٣- ركن الدين أبو المظفّر بركيا روق ٤٨٧ - ٤٩٨ هـ (٤)

٤- ركن الدين ملكشاه الثانى ٤٩٨ - ٤٩٨ (٥)

٥- غياث الدين أبو شجاع محمد ٤٩٨ - ٥١١ هـ (٦)

٦- معز الدين أبو الحارث سنجر ٥١١ - ٥٥٢ هـ (٧)

وظلت الدولة السلجوقية قوية متماسكة مرهوبة الجانب حتى نهاية عهد «جلال الدين أبى الفتح ملكشاه» بفضل قوة هذا السلطان،وعظمة تدبير وزيره «نظام الملك». وشاء القدر أن يترك هذا السلطان القوى ووزيره العظيم مسرح

---

(١)الكامل فى التاريخ ٩:٨٨ - ١٨٩ حوادث سنة ٤٣٤ هـ.

(٢) انظر الكامل فى التاريخ حوادث سنتى ٤٦٥ هـ و٤٨٥ هـ ومختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى ص ٢٧٤.

(٣) انظر الكامل فى التاريخ حوادث سنتى ٤٦٥هـ ٤٨٥هـ ومختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ص ٢٦٥.

(٤) انظرالكامل فى التاريخ حوادث سنتى ٤٨٧هـ ٤٨٩هـ ومختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى ص ٢٧٥، ٢٨٨.

(٥) انظر الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٩٨ هـ

(٦) انظر مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ٢٨٨و٢٨٩

(٧) المرجع السابق ٢٨٩

السياسة فى سنة واحدة بعد أن وصلا بالدولة إلى أوج عظمتها وأزهى أيامها.

وتلا هذا العهد عهد أدّى فيه التنازع على العرش بين أبناء البيت السلجوقى دوره الكبير فى إضعاف بنيانها وتفتيت تماسكها،واشتعلت البلاد حربا بين الأمراء الطامعين فى الملك، وكثرت الفتن، وذاق الناس من جراء ذلك شرورا كثيرة، وكانت هذه الحروب، وتلك الانقسامات من أهم العوامل التى حطمت قوة هذه الدولة (١) فلم تلبث أن توارت شمسها، وفسحت الأفق لدولة فتية نشأت فى رحابها، هى الدولة الخوارزمية.

وكان لبداوة السلاجقة وطبيعتهم القبلية الأثر الواضح فى صبغ دولتهم بالصبغة العسكرية، فاعتمدوا على القبائل التركية فى تكوين جيش قوى لهم مما جعلهم يشجعون تقاطر هذه القبائل على الأقطار الإسلامية.

وقد أدت قوة النظام القبلى إلى إثارة الفتن والقلاقل فى كثير من مراحل تاريخ السلاجقة، فقد كانت القبائل تشعل نيران الفتن إذا حرم السلاطين أفرادها من المرتبات التى يؤدونها لهم، فتزيد الحالة فى الدولة سوءا واضطرابا(٢).

وكان منصب الوزراء من أهم المناصب فى دولتهم، وكان الوزير فى عهدهم يسمى «السيد الأعظم» ، ومن أشهر الوزراء الذين عرفهم عصر الزمخشرى (نظام الملك الحسن بن على الطوسى) الذى تولى الوزارة لألب أرسلان ثم لجلال الدين أبى الفتح ملكشاه، وكان له دوره الكبير فى توجيه سياسة الدولة فى فترة قوتها، كما كان لكفاءته أكبر الأثر فى إرساء قواعدها، وارتفاع شأنها، وكانت وزارته للدولة حلية،..... كما يقول عماد الدين الأصفهانى(٤)

وظفر كثير من أبناء نظام الملك وأحفاده بهذا المنصب أيضا، فأشرفوا على توجيه سياسة السلاجقة فى مراحل مختلفة من تاريخهم (٥). وفيهم يقول الزمخشرى مبينا فضلهم على دولة بنى سلجوق:

---

(١) انظر سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى للنسوى، مقدمة المحقق ٦، ٧.

(٢) سلاجقة إيران والعراق ص٢

(٣) المصدرالسابق ١٦٣.

(٤) تاريخ دولة بنى سلجوق لعماد الدين الأصفهانى ٥٣.

(٥) سلاجقة إيران والعراق ١٦٥.

هم الوزراء الصيد لولا اتساعهم ... لملك بنى سلجوق ضاقت بملكها

بهم نامت الدنيا، وماتت شذاتها ... وقرت على التأبيد دولة تركها

وأعطتهم الأمصار يالك عنوة ... ولو عندت ذاقت مرارة هلكها

فلولم تحطهم بعلبك بأرضها ... لما سلم التركيب فى بعلبكها

وأقلامهم فوق السيوف بكتبها ... تنسيك آثار السيوف ببتكها (١)

فلا غرو أن كثر التنافس حول منصب الوزارة طوال حكم السلاجقة، واشتدت ضراوة هذا التنافس على هذا المنصب حتى بلغت حدًا جعل الطامعين فيه يثيرون الفتن بين أفراد البيت السلجوقى، كما كثرت المؤامرات حول كرسيّه، ودُفعت الرشاوى، وسفكت الدماء، وزاد ذلك كله فى فساد الحياة السياسية وانقسام دولة السلاجقة، وإضعافها(٢).

وفى عهد السلاجقة ازداد نظام الإقطاع العسكرى وانتشر انتشارا واسعا، فكان الأمير أو الحاكم الذى يستقل بمدينة أو ولاية يحكمها حكما مطلقا، ويمارس فيها سلطة الرئيس الإقطاعى، وكان سيد الأرض يدفع إلى السلطان جزية سنوية على شرط أن ينضوى هو وعدد من جنوده تحت لوائه عندما يخوض السلطان غمار الحرب، كما كان عليه أن يجهز جنوده بالمئونة والعتاد على نفقته الخاصة(٣).

أما الدولة الخوارزمية: فقد تأسست فى «خوارزم» ونسبت إليها، وأطلق على ملوكها لقب «خوارزمشاه». ويرجع نسب ملوكها إلى عبد تركى كان يسمى «نوشتكين»، اشتراه أحد أمراء السلاجقة، وقد أظهر هذا العبد من اللباقة والكفاءة ما جعله يترقى فى المناصب حتى عينه السلطان «ملكشاه» واليا على خوارزم سنة ٤٧٠ هـ، ولما توفى سنة ٤٩٠ هـ خلفه ابنه (قطب الدين محمد)، ولُقّب «خوارزمشاه» أى «ملك خوارزم»، واستقر الملك فى هذه الأسرة التى نشأت فى

---

(١) الديوان ٥٢ - ٥٣

(٢) سلاجقة إيران والعراق ١٦٥، ١٦٦.

(٣) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى ٣٧٤.

ظل السلاجقة، وخضع ملوكها لسلاطينهم.

وأخذت الدولة الخوارزمية الناشئة تثبت دعائمها وتوطد أركانها، على حين أخذ الصراع على السلطة ينخر فى عظم الدولة السلجوقية ويُفتت وحدتها ويضعف قوتها، وأغرت هذه الحالة ملوك «خوارزم» بالاستقلال بمملكتهم، وتوسيع نفوذها على حساب دولة السلاجقة المتداعية، وبدأت مرحلة من الصراع بين الدولتين كان الغلبة فى نهايتها للدولة الخوارزمية الفتية، التى أصبحت جديرة بأن ترث السلجوقية المتداعية سنة ٥٩٠ هـ، حين انتصر جيش الخوارزمية على جيش السلجوقية عند الرى، وقتل طغرل بك السلجوقى.

وتطلعت الدولة الخوارزمية إلى تكوين دولة إسلامية عظيمة ترث الدويلات الإسلامية المتناثرة، وخطت فى طريق هذا الأمل خطوات موفقة، ولكن الهجمة المغولية الشرسة لم تمهلها حتى تستكمل هذه الخطوات، وتحقق للدولة الإسلامية ما كانت تصبو إليه من استعادة وحدتها السابقة ومجدها الغابر. فقد قامت معارك طويلة بينها وبين المغول انتهت بهزيمة جلال الدين منكبرتى آخر ملوكها وقتله فى سنة ٦٢٨ هـ(١).

وقد عاصر الزمخشرى من ملوك هذه الدولة وأمرائها :-

١- نوشتكين ٤٧٠ - ٤٩٠هـ

٢- قطب الدين محمد بن نوشكتين ٤٩٠ - ٥٢١ هـ

٣- أتسز بن قطب الدين محمد ٥٢١ - ٥٥١ هـ (٢)

بعد هذا العرض السريع للحياة السياسية فى عصر الزمخشرى يمكن أن نقول: إنه عصر افتقد الاستقرارالسياسى، واصطبغ بالصبغة الحربية فى معظم مراحله، واشتد الصراع فيه متنوعة أطرافه، فهناك الصراع بين الدولة الإسلامية والروم، والصراع بين السلاطين والخلفاء، والصراع بين السلاجقة والخوارزميين

---

(١)سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى،مقدمة المحقق ٢٠، ٢١.

(٢) انظر المرجع السابق ٢.

وغيرهم من الأتابكة الذين كانوا ينزعون إلى الاستقلال، وهناك – وهو أشد ألوان الصراع ضراوة وأعنفه أثرا وأكثره معارك – الصراع بين أبناء البيت السلجوقى نفسه، وكتب التاريخ كثيرا ما تحدثنا عما كان يشتعل عند موت كل سلطان منهم من حروب بين أبناء أسرته، وما كانت تتمخض عنه هذه الحروب من سفك الدماء، ونهب الأموال، وخراب البلاد، وفقدان الأمن والاستقرار(١).

وخطر آخر قد استشرى فى هذا العصر واستفحل أمره، وهو خطر طائفة (الإسماعيلية) وهم فرقة من غلاة الشيعة، تدين بإمامة «إسماعيل بن جعفر الصادق» وتسمى أيضا «الباطنية» لأن أتباعها يبطنون خلاف ما يظهرون، كما أطلق عليهم «الملاحدة والحشيشية» وقد كثر أتباعهم فى هذا العصر، وقوى أمرهم، وتمكنوا بزعامة قائدهم (الحسن بن الصباح) من الاستيلاء على كثير من القلاع الحصينة فوق الجبال، وأصبحوا يهددون الدولة كلها حاكمين ومحكومين، وأدخلوا الرعب فى قلوب السكان الآمنين،وكثرت ضحاياهم من كبار رجال الدولة، حتى كان الأمراء يلبسون الدروع تحت ثيابهم(٢).

(١)انظر تاريخ الخلفاء ٤٢٨ أحداث سنة ٤٩٧.

(٢) انظر سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى مقدمةالمحقق ٧، ٨، ٩.

(٣) الحياة الاقتصادية والاجتماعية

يعد عهد السلطان جلال الدين أبى الفتح ملكشاه من العهود العظيمة، بفضل ما كان يمتاز به هذا السلطان من الشجاعة وحسن التدبير، وبفضل معاونة وزيره العظيم «نظام الملك» الذى يعد من أقدر الوزراء الذين عرفهم تاريخ الدولة الإسلامية.

ففى هذا العهد ازدهرت التجارة والصناعة، وزهت الآداب والفنون، وجملت المدن بالمدارس والمساجد، وأنشئت المستشفيات والقصور، وشقت الطرق، وحفرت الترع فى كافة الأمصار والبلدان تسهيلا للتجارة والزراعة، ونعم الناس بالأمن والاستقرار فى ظل هذا السلطان القوى، وفى كنف هذه الدولة المتماسكة(١).

وما إن ينتهى هذا العهد العظيم حتى نرى شبح الانقسام يطل برأسه بين أبناء البيت السلجوقى، وينشأ صراع على السلطة لا يلبث أن يهدأ حتى يحتدم، وتشتعل الحروب وتكثر المعارك، وينصرف هم السلاطين والولاة إلى تجهيز الجيوش المحاربة فيجمعون بكثير من العسف والعنف الأموال من الناس لإعدادها والإنفاق عليها، (٢) وكانت هذه الجيوش تستولى على ما فى طريقها من مال عام أو خاص، ولم يكن الجيش المنتصر ليعود أدراجه إلا بعد أن يقتحم المدن والقرى، ويهاجم الناس فى بيوتهم ومتاجرهم، ويسلبهم أموالهم، ويخرب ديارهم(٣). وبذلك فقد الناس الأمن والاستقرار، وانصرفوا عن الاهتمام بأسباب رزقهم، وانشغل ذوو الأمر عن الاصلاح الاقتصادى.

وفى هذا العصر تعددت غارات البدو على المدن المجاورة، واستفحل خطر الباطنية، وكثر اللصوص، وانتشر قطاع الطرق، وأصبحت القوافل التجارية عرضة لأذى هذه العصابات، يستولون على ما فيها، أو يفرضون عليها الإتاوة. واستشرى أذاها حتى إنّ قوافل الحجاج لم تسلم منه(٤).

---

(١)انظر: مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى ٢٧١، ٢٧٢.

(٢) أنظر: الكامل فى التاريخ ١٢٢/١٠ - ١٢٤ حوادث سنة ٤٩٥ هـ.

(٣) انظر: الكامل فى التاريخ ١١٣/١٠ سنة ٤٩٤ هـ.

(٤) انظر الكامل فى التاريخ ١٤٧/١٠ سنة ٤٩٨، ١٦٢ سنة ٥٠٠هـ.

وكانت النظم الاقتصادية تجرى وفق مصلحة فئة قليلة من الخاصة، فانتشر نظام الاقطاع ، وشاع نظام الضمان، وهما نظامان لا يخلوان من كثير من العسف والاستغلال، وفرضت الضرائب الباهظة على ملاك الأرض وزارعيها، وأصبحت الأرض عاجزة عن الوفاء بتكاليف زراعتها ودفع ما يفرض عليها من الخراج، فهجرها أصحابها وكرهوا فلاحتها، وهذا شاعر يتحدث عن هذا الوضع الذى آل إليه أصحاب الأرض وزارعوها فى هذا العصر فيقول:

قد كانت الضيعة فيما مضى ... تُغِلُّ من يملكها دائبه

فأصبحت الضيعة فى يومنا ... مهجةٌ من يملكها ذائبه

يستغرق الغلّة فى خرجها ... ويعرض الكلفة والنائبه

فإن يُقم صاحبها كلّ ذا ... ينجُ وإلا نتفوا شاربه(١)

لهذه الأسباب وغيرها ساءت الحياة الاقتصادية، وأصبحت الطبقة العامة تعانى ألوانا من العسف والاستغلال، وفنونا من البؤس والحرمان، وضروبا من الكوارث والأوبئة، واشتدّ غلاء الأسعار، وكثرت المجاعات حتى اضطر الناس إلى أكل الميتة والكلاب، ومات منهم خلق كثير عجز الأحياء عن دفنهم لكثرتهم، كما تحدثنا بذلك كتب التاريخ فى أكثر من موطن (٢).

وكانت هذه الظروف الاقتصادية الصعبة لهذه الطبقة سببا فى تسرب مشاعر القلق والخوف واليأس إلى نفسها تملؤها حزنا وهما،ولهذا سرت فى المجتمع روح التذمر والشكوى، ولعن الناس الزمان الذى يعاكس آمالهم وأمانيهم، وندبوا حظوظهم، وكرهوا دهرهم الذى كان يجرعهم كأس الهموم دهاقا (٣)

وإلى جانب هذه الطبقة العامة الفقيرة كانت توجد طبقة الخاصة وتتمثل فى ذوى النفوذ والسلطان ومن يتصل بهم، وينعم بتقريبهم، وفى ذوى اليسار

---

(١)يتيمة الدهر للثعالبى ٤ / ٨٧ والأبيات لأبى محمد السلمى

(٢) الكامل فى التاريخ ١٠/١٠٨ سنة ٤٩٢، ١١٣ سنة ٤٩٤هـ ،١٢٤ سنة ٤٩٥ هـ.

(٣) الشعر العربى فى العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد لعلى جواد الطاهر ٢/٥٩.

والغنى من الناس.

وأبناء هذه الطبقة كانوا يعيشون حياة مسرفة فى الترف والبذخ ويستمتعون بما عرفه المجتمع من ألوان الحضارة وضروب الحياة اللاهية، وكتب التاريخ تنقل إلينا كثيرا من مظاهر الإسراف فى الإنفاق والترف فى الحياة لدى هذه الطبقة، كما ردد الشعر صدى هذه الحياة فى قصائد تصف القصور والأديرة ومجالس الشراب وموائد الطعام، ومحافل الغناء، ومواكب الأعياد إلى غير ذلك.

وكان لظهور وسائل الترف بهذا الشكل الصارخ، وللتفاوت الشديد بين أبناء الطبقتين العامة والخاصة أثر كبير فى فساد الحياة الاجتماعية وتدهور القيم الخلقية، فقد أصبح للمال أهمية كبرى، وتكالب الجميع على الظفر به بما أمكن من وسائل وما أتيح من أساليب، فصودرت أموال الرعية، وكثرت الرشاوى، وانتشر قطاع الطرق. وعم الاستجداء والتملق.

وفى شعر الزمخشرى تصوير لهذه المفاسد الاجتماعية، من ذلك قوله فى أهمية الدينار وأثره الساحر فى قضاء الحوائج وتذليل المصاعب، مما يدلّ على انتشار الرشاوى وفساد الأمور:

وإذا رأيتَ صعوبةً فى مطلب ... فاحمل صعوبته على الدينار

يرددهُ كالظهر الذلول، فإنه ... حجرٌ يلينّ قسوة الأحجار(١)

ومن شعره يشكو فساد الأخلاق وضياع القيم:

شحٌّ مطاع هوًى فى الدين متّبع ... فسقٌ صُراحٌ قلوبُ الغلّ والحسد

لا خَصْلةٌ من خِصَال البر واحدة ... لا همّةٌ لا تُقًى لا خيرَ فى أحد

ما فيهم من سجايا الأولين ولا ... حكاية عنهم أو حسن معتقد

قومٌ من الخير عُقْمٌ لا خلاقَ لهم ... وبعضهم إن يلدْ أكرومة يئد(٢)

وإلى جانب هذا كان المجتمع مسرحا لعصبيات جنسية وعقائدية ومذهبية، فقد

١- الديوان ٣٩٠

٢- الديوان ٢٦١

اشتد الصراع بين أصحاب الفرق المختلفة من سنيين وشيعة ومعتزلة ومتصوفة، كما أشتد بين أتباع المذاهب الفقهية، وأصبح لكل عالم عقيدته ومذهبه اللذان يعرف بهما ويتعصب لهما، وأصبح لكل فرقة مدارسها،ولكل مذهب أتباعه، وقامت كل فرقة تدعو لعقيدتها، وتنافح عن مذهبها،وكثيرا ما كانت المناظرات تعقد بين أنصار الفرق المختلفة، وقد تتطور المناظرات العلمية إلى مجادلات عصبية لا تلبث أن تحتدم وتتحول إلى ألوان من السباب وتسفيه العقول والعقائد وتزييف المذاهب، وكثيرا ما كان التعصب يأخذ صورا متطرفة تصل إلى حد الاعتداء على المخالفين وهدم مدارسهم وإحراق كتبهم، وقد تنجلى المعركة عن العديد من القتلى والجرحى. وكتب التاريخ حافلة بصور كثيرة ومتنوعة لهذا الصراع وتلك العصبية التى أصبحت سمة تميز هذا العصر.(١)

وقد شاع الاعتزال «بخوارزم» وعُرف أهلها باعتناق مذهبه، حتى أصبحت كلمة «خوارزمى» تعنى «معتزليا» كما يفهم ذلك من إجابة «القاسم أبى محمد الخوارزمى» لياقوت عندما سأله عن مذهبه، فقد قال فى جوابه: «حنفى ولكن لست خوارزميا - يكررها - إنما اشتغلت ببخارى فأرى رأى أهلها» ويعقب ياقوت على هذه الإجابة بقوله: نفى عن نفسه أن يكون معتزليا رحمه الله.(٢).

والزمخشرى يجعل مذهب الاعتزال رأس فضائل «خوارزم» ويقول عنه: إنه «هو ما رزقته من المذهب السديد، مذهب أهل العدل والتوحيد مع الباطشين فيه بقوة السواعد، الرامين عنه بالنبل الصوارد،(٣) والشاقين فى دقائقه الشعر، المطيرين عن نخر أعدائه النعر(٤) وذلك فى كل زمان، وخاصة فى زماننا هذا، فقد أزهر فيها ما شاء من السرج، وأطال فيها السنة الحجج»(٥).

ولأهل خوارزم خصائص اجتماعية وفضائل خلقية يذكر بعضها النصيبى فيقول عن خوارزم: «وفى خواص أهلها يسار وقيام على أنفسهم بالمروءة

(١) انظر الكامل فى التاريخ ١٠:٤٦ سنة ٤٧٥ هـ عن الفتنة بين الشافعية والحنابلة، ٩٣ ، ٩٤ سنة ٤٨٨ هـ عن الفتنة بين الكرامية من جهة والشافعية والحنفية من جهة أخرى. والبداية والنهاية ١٢ : ١١٧ سنة ٤٧٠ عن الفتنة بين الحنابلة وفقهاء النظامية التى قتل فيها نحو عشرين قتيلا.

(٢) معجم الأدباء لياقوت - دار المستشرق ببيروت ١٦ : ٢٣٩.

(٣) الصوارد: جمع صاردة أى نافذة.

(٤) النخر: جمع نخرة وهى رأس الأنف ومقدمه. والنعر: جمع: نعرة: الكبر والجهل.

(٥) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار للزمخشرى ١/٣٥٢ ، ٣٥٣.

الظاهرة، وهم أكثر أهل خراسان انتشارا وسفراء وليس بخراسان مدينة كبيرة إلا فيها من أهل خوارزم جمع كثير، ولهم بأس على الغزية ومنعة، وليس ببلدهم معدن ذهب ولا فضة ولا شئ من جواهر الأرض، وعامة يسارهم من مناصرة الأتراك واقتناء المواشى»(١).

ويذكر الزمخشرى ما قاله ابن سمقة الكاتب عن فضائل خوارزم وأهلها فيقول: «ولخوارزم فضائل لا يوجد مثلها فى سائر الأقطار، وخصال محمودة لا تتفق فى غيرها من الأمصار ،هى ثغر من ثغور الإسلام، قد اكتنفها أهل الشرك،وأطافت بها قبائل الترك، فغزو أهلها معهم دائم، والقتال فيما بينهم قائم، قد أخلصوا فى ذلك نياتهم، وأمحضوا فيه طوياتهم، وقد تكفل الله بنصرهم فى عامة الأوقات، ومنحهم الغلبة فى كافة الوقعات،وأهلها أهل بسالة، وقلوب جرية، ونفوس أبية، قد فشا عنهم ذلك فجبن العدو عن مكافحتهم، وفشل عن مناوشتهم، وفيهم الرمى بالنُشّاب لا تخطئهم إصابة، ولا تكاد تسقط لأحد منهم نشابة، مع استقلالهم بأنواع السلاح، من السيوف والرماح، ولهم السداد والديانة، وعندهم الوفاء والأمانة، وضمائرهم نقية طاهرة، ورغباتهم فى أصناف الخير ظاهرة، ودينهم محبة الأخيار، ومقت الأشرار، والإحسان إلى الغرباء، والتعطف على الضعفاء، وخصائص أخر لا تستقصى، ولا تعدّ ولا تحصى، ومما اختصت به أنواع الرقيق الروقة، والخيل الهماليج الفرهة، وضروب الضوارى من البزاة والصقور وأجناس الوبر وألوان الثياب»(٢).

ويصفهم الزمخشرى فى شعره بما يقرب من هذا فيقول فى حديثه عن شوقه إليهم:

ولكنه استشرى وجدّ النزاع بى ... إلى معشر لم يخلطوا الجدّ باللعْب

هم المرخُ أو أرْخَى لمقتدح الهدى ... وأصلبُ من نبْع لذى القدْح والضبّ

تدور رحى الدين الحنيفى منهم ... على خير قطْب شدّه الله من قطْب

أناس بجبريل اقتدَوا، وعدوهم ... بإبليس، فرق بيّن لذوى اللبّ

وعضّوا على البرهان أضراسهم، فلم ... يميلوا مع التقليد والبَهْت والكِذْب(٣)

---

(١) كتاب صورة الأرض ١/ ٤٨١.

(٢) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار ١/ ٣٥١ - ٣٥٢.

(٣) الديوان ١٩.

(٤) الحياة الثقافية

شهد عصر الزمخشرى نهضة علمية عظيمة، ولا غرو فهو العصر الذى جنى أهله ثمرة النهضة الثقافية التى بدأت ببزوغ الإسلام، ثم أخذت فى التطور والنمو تغذيها ثقافات الأمم الأخرى من فارسية وهندية ويونانية، ويرفع لواءها أجيال من العلماء مدونين ومترجمين ومؤلفين، حتى إذا انتهينا إلى عصر شاعرنا وجدناها وقد رسخت أصولها، وبسقت فروعها وامتدت ظلالها، ونضجت ثمارها، فكثرت العلوم، وتنوعت الفنون، ووضعت لكل علم أصوله، ورسخت لكل فن طريقته، وعبّدت طرق البحث والجدل والمناظرة.

وإذا كان للحياة الثقافية ما يميزها فى هذا العصر فهو ما قام به علماؤه من الجهود الكبيرة فى التصنيف والتأليف، فخلفوا لنا من الموسوعات القيمة ما حفظ تراثنا العلمى والأدبى، ومن المعاجم الجامعة ما صان لغتنا فسجل مفرداتها وضبط بِنْياتها، ووضح معانيها.

وميزة أخرى لهذا العصر هى المدارس الكثيرة التى أنشئت فى أرجاء البلاد، فبدأ بها التعليم المنظم، والتثقيف الذى يسير حسب خطة محددة ومنهج مرسوم، والمدارس النظامية التى أنشأها «نظام الملك» وزير هذا العصر المرموق دليل واضح على ذلك، فلا عجب أن عُرف هذا العصر بعصر الموسوعات والمعاجم والمدارس(١).

ومع هذا فقد وجد عاملان كان لهما تأثير سلبى على الحركة الفكرية والنشاط العلمى لهذا العصر.

أولهما: استيلاء الترك على مقاليد الأمور، وهم بدو ليسوا أصحاب ثقافة ولا مدنية ولا حضارة. وإنما هم سكان صحار وقفار، وأصحاب حرب وجلاد وبأس ومراس، وقد عدهم الجاحظ أعراب العجم(٢).

وهؤلاء الترك قد اعتنقوا المذهب السنى، وتعصبوا له، كما راقهم مظهر

---

(١) انظر: تاريخ الأدب العربى للسباعى بيومى ٣/١٧ وتاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان ٣/١١.

(٢) تاريخ الأدب العربى د: شوقى ضيف ٤/١٠، ١١

طوائف الصوفية فبالغوا فى احترامهم مما أدى إلى انتشار التصوّف ورواج سوقه فى عصرهم، وكان التصوف حينئذ يمثل حركة مضادة للنظر العقلى فى الدين(١)، كما كان للانتصار لمذهب أهل السنة على حساب الاعتزال أثره فى إخماد الحركة الفكرية، وحصرها فى نطاق ضيق هو نطاق الدين ولا سيّما ما يخدم المذهب السنى.

وثانيهما: موجة التعصب الشديد حول العقائد والمذاهب فقد وجّه علماء العصر معظم طاقاتهم وأكثر جهودهم إلى هذه الخصومات العقائدية والمذهبية، وجعلوا العلم والفلسفة فى خدمة المباحث المذهبية والمجالات الكلامية، وكان لهذه النزعة آثارها السيئة من ضيق الأفق، وجفاف العلم، وقلّة الابتكار.

وكان لإقليم خوارزم من الخصائص ما يجعله بيئة علمية نشطة. فهو إقليم عريق فى حضارته ازدهرت فيه الثقافة الإيرانية القديمة، وكان له دوره فى تطور الحضارة فى أواسط آسيا من أقدم الأزمان(٢).

وما إن فتحها المسلمون حتى اعتنق أهلها الإسلام بحماسة شديدة دفعتهم إلى إجادة لغته ودراسة علومه، وإذا بهذا الإقليم يخرج لنا من العلماء والأدباء ما يعد غرّة على جبينه ودرّة فى تاج الإسلام(٣)؛ حتى إنّ الثعالبى ليفرد بابا فى يتيمته لغُرر فضلاء خوارزم(٤).

وقد تعددت فى كتب المؤرخين الإشادة بأهل خوارزم، وبيان سبقهم فى العلم والأدب وتميزهم بالذكاء والنبوغ: فالمقدسى يصفهم بأنهم أهل علم وفقه وقرائح وأدب(٥)، وياقوت يقول: «وما أظن أنه كان فى الدنيا لمدينة خوارزم نظير فى كثرة الخير وكبر المدينة وسعة الأهل والقرب من الخير وملازمة أسباب الشرائع والدين، والذين ينسبون إليها من العلماء والأعلام لا يحصون»(٦) ثم يذكر

---

(١)انظر سلاجقة إيران والعراق ١٨١.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية (خوارزم)
(٣) انظر الزمخشرى للدكتور أحمد الحوفى ١٦ - ٢٠
(٤) يتيمة الدهر ٤/١٩٤ - ٢٥٥
(٥) أحسن التقاسيم ٢٨٤.
(٦) معجم البلدان ٣/٢٧٦

بعضـــهم، ولـقد شجع الخوارزميـــون الأدبـــاء والعلمـــاء فـــازدانت دولتـــهم بكثير منهم(١).

أما الشعر: فقد مر فى هـذه الفترة بطور من الضعف والجمود، وعجز هذا العصر - على كثرة شعرائه - عن أن يخرج لنا شاعرا يمكن أن نعده فى مصاف عمالقة الشعر إلى جانب أبى تمام والمتنبى وغيرهما ممن قدمتهم العصور السابقة، وزخر بهم تاريخنا الأدبى.

حقيقة لقد خلّف هذا العصر كماً ضخما من التراث الشعرى، وعرف عددا كبيرا من الشعراء، ومن يتصفح دمية القصر للباخرزى وخريدة القصر للعماد الأصفهانى، ومعجم الأدباء لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان ير كثرة من حفل بهم العصر من الشعراء، فقد كان الشعر وسيلة لحياة رغدة،ولذلك قلما نرى شاعرا من المئات التى ترجم لها فى هذه الكتب لا يتكسب بشعره.

وسبب آخر كان وراء هذا النشاط الشعرى فى هذا العصر، هو أن الشعر كان يعد جزءا لا يتجزأ من الثقافة العربية التى كان الناس يعكفون عليها فى شغف،وهذا هو السر فى أنك قلما تجد فقيها أو فيلسوفا فى تلك البيئة إلا وهو ينظم الشعر(٢).

ومما يسر الأمر على هؤلاء أن الشعر أصبح فى هذا العصر صناعة لفظية، ومهارة لغوية يكتسبها كل من اجتمعت له وسائلها من إحاطة باللغة وأسرارها، ودراية بالعروض وقواعده، واستيعاب لمعانى الشعراء السابقين وتراكيبهم وصورهم، فمن حصل هذه المهارات أمكنه أن ينظم كلاما موزونا مقفى يسميه شعرا، ولا ضير عليه إن أعوزه أهم خصائص الشعر من التعبير عن المشاعر وتصوير الأحاسيس مما يمنح الشعر حيويته وحرارته.

ومن بين ما ذكرهم عمادُ الدين الأصفهانى فى خريدته من العلماء الذين نظمـــوا الشعر:

---

(١) الزمخشرى ١٦

(٢) تاريخ الأدب العربى للدكتور شوقى ضيف ٥/٥٧١ ، ٥٧٢.

الشيخ أبو محمد بن الدهان النحوى(١) ومن شعره:

أهْوى الخمول، لكى أظلّ مرفّها ... مما يُعانيه بنو التيجان

إن الرياح إذا توالى عَصْفُها ... تُولى الأذيّة عالى الأغصان(٢)

والشريف ابن الشجرى النحوى(٣)

ومن نظمه:

هل الوجدُ خافٍ والدموعُ شهود؟ ... وهل مكذبُ قولَ الوشاة جَمُودُ؟

وحتى متى تُفنى شئونكَ بالبكا ... وقد حدّ حداً للبكاء لبيدُ

وإنى، وإن حنّت قناتى كَبْرَةٌ ... لذو مِرّةٍ فى النائبات جليدُ(٤)

وأبو الحسين عاصم بن الحسن المحدث الشاعر(٥)

ومن شعره:

وحرّم غمضى -والحجيج على منى- ... غزال رأيناه بمكة محرِما

رمى وهْو يسعى بالجمار، وإنما ... رمى جمرة القلب المعذّب إذ رمى

ولما تفرقنا بمنعرج اللّوَى ... وأنجدتُ لا أرجو لقاء وأتهما

بكيت على وادى الأراك، وماؤه ... معين، فصار الماء من عبْرتى دما(٦)

بل إن من شعراء العصر البارزين مَنْ كان على حظ كبير من الثقافة العلمية، فالأرّجانى(٧) قد تخرج فى المدرسة النظامية فقيها شافعيا، يحسن الحكم بين الخصوم والفتيا، وكان يفتخر بأنّه فقيه يحسن الشعر، وفى ذلك يقول:

أنا أشعر الفقهاء غير مدافع ... فى العصر بل أنا أفقه الشعراء

---

(١) خريدة القصر الجزء الثالث المجلد الأول ١٩.

(٢) المصدر السابق

(٣) وهو أبو السعادات هبة الله العلوى نقيب الطالبيين بالكرخ أحد أئمة النحاة، المصدر السابق ٥٢.

(٤) المصدر السابق ٥٣ - ٥٤

(٥) المصدر السابق ٢٩٠

(٦) المصدر اسابق ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٧) هوناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد الأرّجانى نسبة إلى أرّجان من كور الأهواز من بلاد إقليم خوزستان ولد سنة ٥٤٤ هـ انظر تاريخ الأدب العربى د. شوقى ضيف ٥/٥٨٦.

وأعدته معرفته العميقة بالفقه لكى يشتغل بالقضاء فى موطنه ببلاد خوزستان(١)· والأبيوردى قد تفقه على إمام الحرمين الجوينى بنيسابور،(٢) والطغرائى كانت له ثقافته العلمية العميقة إلى جانب ثقافته الأدبية التى عرف بها شاعرا وكاتبا، فقد نبغ فى الكيمياء وله فيها مصنفات مختلفة، بل إنه نظم فيها أشعارا يضمها مخطوط تحتفظ به مكتبة جامعة القاهرة بعنوان «مفتاح الرحمة ومصابيح الحكمة» وقد افتخر بثقافته الواسعة، وإلمامه بشتى العلوم فقال:

أما العلوم فقد ظفرت ببغيتى ... فيها فما أحتاج أن أتعلما

وعرفت أسرار الخليقة كلها ... علما أنار لىَ البهيم المظلما(٣)

ويُلاحظ كثرةُ الشعر فى هذا الوسط العلمى حتى لكأن الشعر أصبح لغة العلماء فيما بينهم حين يتبادلون الثناء،وحين ينتصرون لمذهبهم ويشرحون رأيهم، وحتى حين يستفتون أو يُفتون. وهذا أبو الخطاب الكلواذى أحد أئمة الحنابلة يُكتَب إليه هذان البيتان فى فتيا:

قل للإمام أبى الخطاب مسألة ... جاءت إليك وما – إلاسواك – لها

ماذا على رجل رام الصلاة،وإذ ... لاحت لناظره ذاتُ الجمال لها

فيجيب أبو الخطاب ويكتب فى الحال:

قل للأديب الذى وافى بمسألة ... سرَت فؤادى لما أن أصخت لها

إن الذى فتنتْه عن عبادته ... خريدة ذات حُسنٍ فانْثَنَى لها

إن تاب ثم قضى عنه عبادته ... فرحمة الله تغشى من عصى ولها(٤)

ولا عجب إذا وجدنا كثرة الشعر التعليمى واتساع ميادينه فى هذا العصر الذى أصبح فيه أكثر العلماء شعراء، فقد رأينا فيه إلى جوار نظم العلوم من نقد ونحو نظما للكيمياء والرؤية الفلسفية والأمثال، ونظما لحكايات على ألسن الحيوانات(٥)· وللحريرى كتاب اسمه «ملحة الإعراب» وهو منظومة فى النحو تقع

(١)المرجع السابق،والبيت فى ديوان الأرجانى ١٧

(٢) انظر تاريخ الأدب العربى للدكتور شوقى ضيف ٥/٦٠٠.

(٣) المرجع السابق ٥/٥٨٢ – ٥٨٥

(٤) خريدة القصر ٤٠.

(٥) الشعر العربى فى العراق وبلاد العجم فى العصر السلجوقى ٢/١٥١.

فى أكثر من ٣٨٠ بيتا قسمها أبوابا منها فى:

باب الكلام

خيرالكلام ما أفاد المستمع نحو سعى زيد وعمرو متبع

ونوعه الذى عليه يُبنى اسم وفعل ثم حرف معنى(١)

وللطغرائى - وكان عالما فى الكيمياء، كما عرفنا - شعر عن التراكيب والجسد والفضة والكبريت والزرنيخ والنحاس والزئبق والهواء(٢).

أما ابن الهبارية فقد نظم كتاب «كليلة ودمنه» فى كتاب سمّاه «نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة»، كما نظم كتابه «الصادح والباغم» قصصا على ألسنة الحيوانات تضمنت مواعظ ونصائح.

وإلى جانب هؤلاء العلماء الذين نظموا الشعر، والشعراء الذين نبغوا فى العلم وجدنا من فرغوا لقول الشعر مثل الغزى وحيص بيص وصرّدرٌ وابن التعاويذى وابن الخياط وغيرهم كثيرون، فإذا قرأنا شعر الكثيرين من هؤلاء وجدناهم قد اتخذوا الشعر بضاعتهم ومرتزقهم، يعتمدون عليه فى الحصول على ما يضمن لهم عيشة الترف أو عيشة الكفاف كل حسب ظروفه وإمكاناته، فأصبح الشعر عندهم حرفة لها كل ما للحرفة من سوق وبيع وشراء وربح وكساد، فهذا صرّدُرّ يتحدث عن شعره وكأنه تاجر يتحدث عن بضاعته فيقول:

ولست أرخص أقوالى لسائلها إلا عليك وللأشعار أسعار(٣)

ومثل ذلك نجده كثيرا عنده وعند غيره من شعراء تلك الفترة.

وكان طبيعيا أن يفوز غرض المدح بالنصيب الأكبر من شعر هذا العصر، فإذا قرأنا هذه المدائح وجدنا أكثرها يفتقد الصدق الوجدانى، فالشاعر يمدح كل من يطمع فى عطائه،مضفيا عليه كل صفات المديح التى تختزنها ذاكرته، وتساعده على تدبيجها ثقافته، وإن كان هو أول من يعرف زيف هذا المدح وكذب هذا الشعر،ولكنها لوازم العيش والحاجة إلى عطاء الممدوح، كما يصرح بذلك

(١) المصدرالسابق ٢/١٥٣.
(٢) المرجع السابق ٢/١٥٥.
(٣) ديوان صرّدرٌ ٣٠.

حيص بيص فيقول:

كم أذلت المديح فى حمد قوم ... كان كفرا بالمجد ذاك الحمدُ

حرج ألجأ الصدوق إلى الميـ ... ـن وما من لوزام العيش بدُ(١)

واعترف الأبيوردى بأن مدائحه زلّة تقوم على ترديد ما قاله القدماء فقال:

ومتى زلّ عن لسانى مديح ... هو أدنى مروءة الأشراف

فأنا المستعير معناه مما ... قاله المادحون فى الأسلاف(٢)

وكثر شعرالشكوى فى هذا العصر حتى إنه ليؤلف غرضا مستقلاً من أغراض شعرهم أفرِدت له القصائد والمقطعات كما جاء متناثرا خلال الأغراض الأخرى من مدح وفخر ونسيب ورثاء،وقد ساعدت ظروف العصر وحالةالشعراءفيه على ذلك، فكثرةُ الشعراء وشدة طموحهم من ناحية،وقلة الاهتمام بالأدب عامة والشعر خاصة فى هذا العصر نتيجة لجهل الأتراك لغته بله تذوق أدبه،وقلة موارد الدولة بعد أن أنهكت الحروب اقتصادها، إلى ألوان الفساد الاجتماعى والخلقى التى عرفها العصر من ناحية أخرى كانت وراء كثرة شكاوى الشعرا ء فى هذا العصر. وبدهى أن نجد فى شعر الشكوى ما افتقدناه فى كثير من شعر المدح، نجد فيه الصدق الوجدانى وحرارة العاطفة؛ لأنه كان تعبيراعن آلام حقيقية يعانيها الشعراء فى هذا العصر.

وألم الشعراء بالأغراض التقليدية الأخرى من فخر ورثاء وهجاء وغزل ووصف وغير ذلك مما عرفه الشعر فى العصور السابقة.

وكان شعرالمجون والغزل بالمذكر أقل حدة منه فى العصر العباسى الثالث، وإن ظل له شعراؤه الذين يحملون لواءه فى هذا العصر، كما شاع شعر الزهد والتصوف والمدائح النبوية.

أما طريقة الأداء عند شعراء هذا العصر فكانت تحكمها نزعة التصنع والتكلف التى سيطرت على الأدباء فيه، وإن كانت فى ميلادها أقدم منه؛ لأننا نجد آثارها واضحة فى شعر القرن الرابع الهجرى، فقد عرفنا ذلك التكلف عند المعرّى فى لزومياته، وذكر لنا الثعالبى أن الصاحب بن عباد صنع قصيدة معراّة من الألف

(١)الشعرالعربى فى العراق وبلاد العجم فى العصر السلجوقى ٢/٨٧

(٢) ديوان الأبيوردى ٢/ ٣٠.

التى هى أكثر الحروف دخولا فى المنظوم والمنثور. والعماد الأصفهانى يذكر لنا أبياتا لأبى الحسن بن أبى البشائر مقدما لها بقوله: وقال ما يقرأ على خمسة أوزان(١).

ويبدو أن هذا التعقيد كان يلائم ذوق العصر،ويلقى الإعجاب من النقاد، ويُعدّ الأفق الأعلى فى البلاغة والفصاحة، فانطلق الشعراء ينظمون قصائد كل ألفاظها من الحروف المعجمة أو من الحروف المهملة أو من الحروف المهموسة، أو مما لا تنطبق معه الشفتان،(٢) وغير ذلك من ألوان التعقيد التى لا صلة لها بجمال الشعر، بل إنها لتحيله إلى عمل لغوى، ورياضة عقلية يراد بها تزجية الفراغ، وانتزاع الإعجاب من السامع أوالقارئ،والظهور بمظهر المجددين.

وهذه أبيات قالها أبو الحسن بن البشائر ملغزا فى بيان اسم من أحبه، وهو «على»، أسوقها نموذجا لما انتهى إليه التصنع والتكلف من تعقيد فى الشعر، يقول:

اسم الذى صيرنى مُدنفا ... لما انتضى من جفنه مُرهفا
يلعبُ - إن رخم - معكوسهُ ... لأنه قد نسق الأحرفا
ألم تر كيف غدا ثلثه ... جذرا لثلثيه إذا ألفا
قد غلب القلبَ على صبره ... وهكذا يخرج إن صحّفا

فالشاعر يريد أن يبين اسم حبيبه، ولكنه يأبى إلا أن يعنّى نفسه، ويعنّى القارئ بهذا التعقيد الذى لجأ إليه: فيلعب حين يرخم يكون معكوسه «على» وهى مكونة من ثلاثة أحرف، الأخير منها وهو ثلثها يرمز إلى العدد «١٠» بحروف الجمل، والعين ترمز إلى «٧٠» واللام ترمز إلى «٣٠» ومجموع العين واللام «١٠٠» وجذر هذا العدد هو «١٠» أى حرف الياء، وتصحيف «على» غلب(٣).

إننى لا أرى فى هذه الأبيات إلا جهدا ذهنيا، ورياضة عقلية ونظما لغويا، وهى أبعد ما تكون عن الشعر الذى هو فى الأساس تعبير عن الشعور وتصوير للأحاسيس، وقد شاعت مثل هذه الألغاز والأحاجى فى هذا العصر فلا عجب أن

(١)خريدة القصر وجريدة العصر، القسم الرابع ٨٥٧/١
(٢) انظر: الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ٧٤.
(٣) خريدة القصر وجريدة العصر القسم الرابع ١١/١.

رأينا عالما يؤلف كتابا يخصصه لتوضيح هذا النوع من الشعر ويسميه «الموجز فى إيضاح الشعرالملغز»(١).

والأبيوردى - وهو من شعراء العصر البارزين - يقدم لنجدياته بما يكشف عما وراءها من صنعة وتكلف، فقد نظم ألف بيت فيها نزولا على رغبة صاحبيه وهو يسجل ذلك فيقول: ثم إن صاحبى كانا يرتاحان للنسيب الرقيق، وينظمهما وطالبى اللهو سلك الطريق، ويختاران من القريض ما رعفت به خياشيم نجد، يهتزان منه لما يرفع دعامتى شرف ومجد، فسألانى أن أنظم فى ذلك ما أنتهج به هذه المسالك، فذكرت لهما ما قاله أبو سعيد الأصمعى لابن أخيه: إياك والنسيب فإنه يجرح القلب،وعرفتهما أن رقيق الشعر مما ينقض به حبوة الحلم فيه فلم يرتدعا عن سؤالهما، ولم أجد بدًا من تحقيق آمالهما،وهذه ألف بيت فى النسيب، وسميناها بالنجديات، ومن نفذ البصر إلى قوافيها ومبانيها،وتأمل ألفاظها ومعانيها، وطالع فواصل أنصافها، وأعطاها قضية عدلها وإنصافها، علم أن تلك تستوعب الحروف التى نطقت بها العرب(٢).

فنحن هنا أمام صانع شعر يصنع ما يُطلب منه لاشاعر يعبر عما يحس به.

وهذا التصنّع والتكلّف اللذان سيطرا على الشعر من ناحية، ورغبة الشعراء فى الاختلاف عن سابقيهم حتى يظهروا بمظهر المجددين من ناحية أخرى إلى جانب النضج العقلى وتعدد الثقافات واتساعها وعمقها وسم شعرهم ببعض السمات أذكر منها:

١- تفصيل الفكرة، واستيفاء عناصرها فى دقة وإحاطة بجوانبها، وتوليد المعنى من المعنى بما ينم عنه من جهد ذهنى وعقلية منطقية، نرى ذلك فى هذه الأبيات التى ذكرها العماد الأصفهانى منسوبة إلى عبد الحليم بن عبد الواحد:

شكوتُ فقالت: كلّ هذا تبرماً ... بحبى، أراح الله قلبك من حبى

فلما كتمتُ الحب قالت لشدّ ما ... صبرتَ، وما هذا بفعل شجى القلب

---

(١)العالم الذى ألف هذا الكتاب هو أبو البقاء الكبرى المتوفى سنة ٦١٦، انظر تاريخ آداب اللغة العربية ٣/٤٤.

(٢) ديوان الأبيوردى - تحقيق د. عمر الأسعد، بقية العراقيات والنجديات، مطبعة زيد بن ثابت بدمشق ١٣٥٩ هـ - ١٩٧٥م.

فأدنو فتعصينى، فأبعد طالبا رضاها، فتعتد التباعد من ذنبى

فشكواى تؤذيها وصبرى يسوءها وتجزع من بعدى،وتنفر من قربى(١)

٢- الإغراب فى المعانى والأخيلة فى محاولة للتجديد نشعر بما وراءها من جهد وتصنع، نجد مثالا لذلك فى قول الباخرزى:

وإنّى لأشكو لسع أصداغك التى عقاربها فى وجنتيك تحوم

وأبكى لِدُرّ الثغر منك ولى أب فكيف يُديم الضحك وهو يتيم(٢)

٣- محاولة الإقناع بالمعنى، وذلك بسوق الدليل على سلامته، بطريقة يتجلى فيها أثر النضج العقلى، ونمو علم المنطق والفلسفة والكلام، وتأثر أسلوب الشعر بكل ذلك، ويمكن أن نتبين تلك السمة فى هذه الأبيات التى قالها أبو عبد الله محمد بن الحسن الطوبى فى غلام ناوله حِصْرِماً:

أتعبتَ قلبى بالصدود ولست أيأس من وصالكْ

فخذ الدليل فقد زُجر تُ لما أؤمل من نوالكْ

ناولتنى من حصْرِم فرجوت نقلك عن فعالكْ

إذ كان يحمُض أولا وتراه حلوا بعد ذلك(٣)

٤- الجنوح إلى المبالغة والتهويل فى المعنى بما يشفّ عنه من تصنّع ومجافاة للصدق الوجدانى ونزعة إلى الإغراب فى محاولة الإتيان بجديد.

فحين يصف صرّدر خصر حبيبته لا يرضيه إلا هذا الوصف:

واستهدت الخصورُ من بنانها خواتما تلبسها مناطقا(٤)

ولم يستكثر الطغرائى أن يقول لممدوحه:

لجلال قدرك تخضع الأقدارُ وبيُمْن جدّك يحكمُ المقدار(٥)

---

(١)خريدة القصر القسم الرابع ١/٢٢.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ٣/٢٧.

(٣) خريدة القصر القسم الرابع ١/٥٦

(٤) ديوان صردر ١٤٨.

(٥) ديوان الطغرائى ٣.

ولا أن يقول له:

فـــى راحـــتـــيـــك الـــرزقُ والأجـــلُ وبـعـزمـتـيـك الأمـنُ والـوجلَ(١)

٤- أما عن التصوير فقد وجدنا معظم الشعراء يُفتنون بالتشبيه والاستعارة، ويحرصون على حشد أكبر قدر منهما فى شعرهم، فتأتى صورهم متلاحقة وإن كانت فى معظمها فاترة لا تمس وجدانا ولا تثير إحساسا، لأنها وليدةُ الذاكرة ونتاج العقل، وثمرة الثقافة وليست صدى لعاطفة.

وتبدو هذه الظاهرة فى تلك الأبيات لأبى عبد الله محمد بن عيسى الفقيه:

بـــأبـــى ظـبـــىُ مـــلـــيـــحُ فـــائـــق بـابـلـىُّ الـلـحـظ غُصـنـىُّ الـقَوام

عـســلـىُّ الـريـق خـمـرىُّ الـهـوى لـــؤلـــؤىُّ الـــثـــغـــر، دُرّىُ الـكـلام

إن تـــثـــنّى مـــاس غـــصـــنـــا فـــى نـقـاً أوتـــبـــدّى لاح بـــدرا فـــى تمـــام

حـــزتُ إذ نـــادمـــنـــى مـــن وجـــهـــه دعـــوة تمـــت بـــروض ومُدام(٢)

٥- أما أسلوب الشعراء فى هذا العصر فقد عكس ولعهم بالمحسنات البديعية بأنواعها المختلفة، والمحسنات البديعية عرفها الشعر العربى منذ نشأته، ولكن الجديد فى هذا العصر هو كلف الشعراء بها، وانصرافهم إليها، يتصنعونها، ويضعونها نُصْبَ أعينهم حين يركّبون عبارتهم، وينسجون أسلوبهم، ولا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن هذا العصر هو عصر ازدهار البديع، فقد أصبحت الصناعة اللفظية غاية فى ذاتها لكثير من شعراء العصر، يحرصون على تحقيقها وإن أدى ذلك إلى ركالة العبارة، والتواء الأسلوب أو ضعف المعنى(٣).

٦- وإلى جانب هذا كثرت المعارضة لقصائد الشعراء السابقين والتضمينُ من أشعارهم والاقتباسُ من القرآن الكريم والأمثال السائرة، والإشارةُ إلى أحداث التاريخ، كما توسع الشعراء فى إدخال ألقاب التعظيم على الأسماء وبثّ عبارات الملق والخنُوع فى ثنايا الكلام(٤).

---

(١)ديوان الطغرائى ٣٧.

(٢) خريدة القصر وجريدة العصر القسم الرابع ١/٣٧.

(٣) انظر تاريخ آداب اللغة العربية ٣/١٣.

(٤) انظر: تاريخ الأدب العربى للسباعى بيومى ٣/٣٩ والشعر العربى فى العراق وبلاد العجم فى العصر السلجوقى ٢/١٩٩ - ٢٠٢.

٧- أما ألفاظ الشعراء فكانت فى معظمها فصيحة تنم عن ثقافة واسعة، ومعرفة بقواعد اللغة وطرق اشتقاقها وتصريفها مع دقّةٍ فى انتقاء الألفاظ السهلة الرشيقة الممثّلة للمعنى كل التمثيل.

ولا غرو أن تسربت إلى لغتهم بعض الألفاظ الأجنبية لا سيما الفارسية، كما كان للغة العلمية صداها فى مفرداتهم وبخاصة العلماءُ منهم، فوجدناهم يستخدمون الكثير من مصطلحات العلوم ومفرداتها، ومن ذلك ما قاله الإمام الغزالى متغزّلا:

هبنى صبوتُ كما ترون بزعمكم وحظيتُ منه بلثم خدٍّ أزهر

إنى «اعتزلت» فلا تلوموا أنه أضحى يقابلنى بوجه «أشْعرِى»(١)

وكثيرا ما نجدهم يؤثرون استعمال الألفاظ الغريبة رغبة فى إظهار براعتهم اللغوية ووفرة مخزونهم من ألفاظ اللغة، على أن هذا الغريب أكثر ما يرى فى المديح يتكلفه الشاعر إغراء للممدوح بزيادة الجائزة، وللحاضرين فى مجلسه بتفضيله على غيره، أما إذا انساق الشاعر وراء عواطفه، وصدق هواجسه، واستجاب لنفسه، فإنه يكثر من المفردات السهلة السلسة الموحية، وإن كان انسياقهم على هذه الشاكلة قليل الحدوث، ونرى أمثلة له فى الرثاء والشكوى والفخر(٢).

والباحث فى أدب هذه الفترة وتاريخها يرى أن الظروف التى أدت بالأدب فيها إلى هذا المستوى من الضعف والجمود كثيرة.

فاذا ما تجاوزنا السبب الرئيس وهو ضحالة الموهبة الشعرية، ونقص الاستعداد الطبيعى عند معظم شعراء هذه الفترة، أقول: إذا تجاوزنا هذا السبب الذاتى وجدنا أسبابا أخرى تعود إلى البيئة وظروفها المختلفة قد أسهمتْ بنصيب كبيرفى هذا الركود الشعرى.

ولعلّ فى مقدمة هذه الأسباب تغلّب العجمة على الحكام، ذلك أن السلاجقة أتراك لم يتخذوا العربية لسانا لهم، فأنى لهم أن يتذوقوا شعرها؟ وبذلك افتقد الشعر فى هذه الفترة سببا مهماً من أسباب قوته ونشاطه وهو تشجيع الحكام وذوى النفوذ والسلطان.

وقد عكس شعر هذه الفترة ما كان من عدم فهم الأتراك للشعر والإقبال عليه

---

(١) الشعر العربى فى العراق وبلاد العجم فى العصر السلجوقى ٢/٧٨.

(٢) المرجع السابق ١٦٨.

فقال المهذّب بن أسعد للصالح بن رُزّيك:

مـنْ أرتجـى يـا كـريمَ الـدهْر يُنْعِشـنى جـدْواه إن خـــاب سعيى فى رجـائيكا

أ أمـدح الـتـرك أبـغـى الـفـضـل عـنـدهـم والـشـعـرُ مازال عـند الـترك مـتروكـا(١)

ولعل الزمخشرى كان يقصد هؤلاء الحكّام الأتراك بقوله:

وكـيـف أرجّى خـيـر مـن إن أتـيـتُه لأنـشـد لـم يـفـهـم مـقولـى ومُنْشَدَى(٢)

وإلى جانب هذا الظرف السياسى فإن **الفوضى الاقتصادية** التى عاشتها البلاد، **والفوارق الصارخة** بين طبقات المجتمع دفعت الشعراء إلى أن يطمحوا إلى حياة الترف التى تعيشها الطبقة الأرستقراطية، واتخذوا من شعرهم وسيلتهم لبلوغ هذه الغاية، يطرقون أبواب السادة والأغنياء مادحين مستجدين فى كثير من الذل والمهانة، وبذلك كسدت سوق الأدب، وانحطت مكانة الأديب وشكا كثير من الشعراء هذه الحالة (٣)

بل إن بعض الشعراء تصل به الحالة إلى طلب الطعام الضرورى الذى يحفظ عليه حياته، ونجد فى هذا أبياتا لابن التعاويذى مُخاطبا عضـــد الديـــن بن رئيس الرؤساء:

فـيـا مـولاى هـل حُدِّثت عـنـى بـأنـىّ مـن مـلائـكـة الـسـمـاء

وأنّ وظـائـف الـتـسـبـيـح قُوتـى ومـا أحـيـا عـلـيـه مـن الـدعّاء

وأنّى قـد غـنـيـت عـن الـطـعـام الـذى هـو مـن ضـرورات الـبـقـاء

وهـل فـى الـنـاس لـو أنـصـفـت خـلـقٌ يـعـيـش كـمـا أعـيـشُ مـن الـهـواء

فـلا فـى جـمـلـة الأحـرار أدعـى ولا بـيـن الـعـبـيـد ولا الإمـاء(٤)

---

(١)كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية لشهاب الدين المقدسى المعروف بأبى شامة الجزء الأول القسم الثانى ٦١٥.

(٢) الديوان ٨٢

(٣) أنظر ديوان الأرجانى.

(٤) ديوان ابن التعاويذى ١٣، ١٤

ولم تكن حالة ابن الخياط الدمشقى بأحسن من حالة ابن التعاويذى، فقد أرسل إلى ابن حيوس يستمنحه شيئا من برّه فقال:

لم يبق عندى ما يباع بحبٍّ ... وكفاك عنى منظرٌ عن مخبر

إلا بقية ماء وجه صنته ... عن أن تباع وأين أين المشترى؟(١)

وأمام هذه الحالة من كساد الشعر وافتقاد أهله الرعاية والاهتمام لم يكن عجيبا أن يعلن شاعر مثل الغزى اضطراره إلى ترك الشعر، بعد أن عزّت فى العصر دواعيه وبواعثه، فيقول:

قالوا: هجرت الشعر، قلت ضرورة ... باب البواعث والدواعى مغلقُ

خلت البلادُ فلا كريمٌ يرتجى ... منه النوالُ، ولا مليح يُعْشَقُ

ومن العجائب أنه لا يشترى ... ويخان فيه مع الكساد ويُسرق(٢)

ولا ننسى أن اللغة العربية قد أصابها من الضعف ما أصاب أبناءها الأصليين فى هذا العصر حين تخلّوا عن سيادة المجتمع، ونجح الأعاجم فى زحزحتهم عن مقاليد السلطة والسياسة، حتىّ أصبح للخواص من الكتاب أخطاؤهم اللغوية التى تشيع على ألسنتهم، مما حدا بالحريرى أن يؤلف كتابه فى أخطائهم ويسميه «درة الغواص فى أوهام الخواص» (٣).

وكان الأمر أشد وطأة على اللغة فى أطراف الدولة الإسلامية، حيث تقل الجاليات العربية وتبعد الأقاليم عن مواطن العرب الأولى، فلا غرو أن ضعف سلطان اللغة العربية فى خوارزم وما حولها من شرقى الدولة الإسلامية، وتقلص ظلها قانعة بأن تبقى اللغة الرسمية فاسحة المجال للغة الفارسية التى ازدهرت فى هذه الفترة، ونهضت لتصل من ماضيها ما انقطع، وأصبحنا نجد من العلماء من تقل إجادته للعربية عن إجادته للفارسية والتركية، مثل «النسوي» الذى كان يجيد الفارسية والتركية على حين تجلى ضعفه فى العربية فى تأليفه، وقد اعترف بذلك وخجل منه(٤).

---

(١) ديوان ابن الخياط ٢٨٧

(٢) النجوم الزاهرة ٥/ ٥٢٤.

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية ٤/ ٤٠.

(٤) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ٣٥.

وهذا شاعر خراسانى يشير إلى هذه الحالة التى تردت فيها هذه الأقاليم المتطرفة، بعد أن ضعف فيها سلطان اللسان العربى فيقول:

لا تعجبنْ من عراقىٍّ رأيت له ... بحرا من العلم، أو كنزا من الأدب

واعجب لمن ببلاد الجهل منشؤه ... إن كان يفرق بين الرأس والذنب(١)

ويروى عن الأبيوردى أنه قال: كنت ببغداد عشرين سنة حتى أمرّن طبعى على العربية، وبعد أنا أرتضخ لكنة أعجمية(٢).

وكان للتقاليد الأدبية والقيم النقدية دور كبير فى جنوح الشعر إلى الصناعة اللفظية، وفى انحرافه نحو التصنع والتلاعب بالألفاظ، واختراع فنون من التعقيد يتنافس فيها كثير من الشعراء، فقد أصبح الشعر صناعة فى نظر النقاد، حتى إنّ أبا هلال العسكرى يسمى كتابه الذى يبحث فى الشعر والنثر «كتاب الصناعتين»، وابن رشيق فى كتابه «العمدة فى صناعة الشعر ونقده» قيد شوارد الشعر وعين أساليبه، وأصبحت أبوابه ومناحيه معينة يراد بها الصناعة الشعرية لا التعبير عن الشعور(٣).

ولقيت الألاعيب اللفظية والمحسنات البديعية اهتماما من أدباء هذا العصر وتشجيعا من نقاده ومؤرخيه، ومن يقرأ خريدة القصر وجريدة العصر يدهشه الإطراء البالغ على شعراء هذا العصر وما برعوا فيه من جناس أو طباق أو تصوير، إلى غير ذلك من ضروب التصنع فى الشعر.

وابن خلكان يذكر هذين البيتين لابن القيسرانى:

شرح المنبر صدرا ... لتلقيك رحيبا

أترى ضم خطيبا ... منك أو ضمخ طيبا

ثم يعقب بقوله: «وهذا الجناس فى غاية الحسن» (٤).

وسبب آخر أرى له أثرا فى قلة شأن الأدب فى هذا العصر؛ ذلك أنه عصر صبغ بالصبغة العلمية، وأصبح الاشتغال بالعلم فيه يمثل المرتبة الأهم، وتوارى الاهتمام بالأدب حتى أصبح ترفا مكملا لا غناء به مستقلا عن العلم، فقد كثرت

---

(١) يتيمة الدهر طبعة مصر سنة ١٩٢٧ ٤/٦٢.

(٢) تاريخ الأدب العربى د: شوقى ضيف ٥/٦٠٠.

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية ٣/١٣.

(٤) وفيات الأعيان ٢/٢٢

العلوم فى هذا العصر، وبلغت درجة كبيرة من النضج، وأصبحت تأخذ من العلماء جلّ أوقاتهم، وكان لأنتشار العقائد المختلفة والمذاهب المتنوعة، وما صاحب ذلك من تعصب كلٌ لعقيدته ومذهبه أثره فى تنشيط هذه البيئة العلمية لشرح هذه العقائدوالمذاهب والبرهنة لها والرد على خصومها، وكلها أمور لا تنفق وطبيعة الشعر.

فإذا تسلح العالم بسلاح العصر وهو العلم، ثم طمح رلى الكمال مال إلى رياض الأدب، فأخذ منه بطرق يتحلّى به حتى يجمع الأدب والعلم، وهذا سرّ ما نراه فى هذا العصر من كثرة العلماء، ومن حرص هؤلاء العلماء على قول الشعر والتحلى بحلية الأدب، وقليل هم الشعراء الذين تخصصوا فى الشعر وعاشوا له حياتهم إذا قيسوا بغيرهم من شعراء العلماء.

وإذا كانت هذه الأسباب وغيرها قد أدت إلى ضعف الأدب بعامة والشعر بخاصة فكسدت سوقه، وتبرم به أهله، فإن شعر المدح – ويمثل الشطر الأكبر لشعر هذا العصر – قد تأثر بسبب آخر خاص به إلى جانب هذه الأسباب العامة، **وهذاالسبب هوافتقادالبواعثالحقيقيةوالدوافعالقويةللمدحالصادق.**

ذلك أن قصيدة المديح فقدت الحادث الخطير الذى تنشد فيه، والذى يكسبها ضربا من الحيوية والقوة، ويوفر لها عنصر الصدق والأصالة، وافتقد شعراء العصر الشخصية الفذة التى تستثير بعظمتها وجدان الشعراء، فيأتى مدحهم معبرا بصدق عن هذا الوجدان، والعلاقة وثيقة بين عظمة الممدوح وكرمه، وجودة الشعر وصدقه، وقد عبر عن ذلك أبو تمام فقال:

لا شئ أحسنُ من ثنائى سائرا ونداك فى أفق البلاد يسايره

وإذا الفتى المأمول أنجح فعله فى نفسه ونداه أنجح شاعره(١)

وأذكر هنا ما قاله الشيخ أبو ذراعة الجرجانى لأمير خراسان فى إجابته على سؤاله إياه: أتنظم شعرا مثل شعر الرودكى؟ فكان مما قاله: «أعطنى واحدا من ألف مما نال الرودكى من عطايا الملوك يأتنى شعر مثل شعره ألف مرة» (٢).

فلا غرو أن أصبح شعرالمدح شعرا رسميا يقال فى المناسبات المهمةوالتافهة كالتهنئة بعيد أو وزارة أو خلعة أو وليد، وقد يقال فى غير مناسبة حين تلح على الشاعر ضرورات الحياة فيقدم بين يدى حاجته أبيات المديح يلفق فيها ما أسعفته به ذاكرته من صفات الثناء، ويتصنّع فيها ضروب التصنع، إرضاء لممدوحه،

---

(١) ديوان أبى تمام بشرح التبريزى ٢ :٢١٣

(٢) انظر تيارات ثقافية بين العرب والفرس د. أحمد الحوفى ٢٨٥، ٢٨٦.

واستزادة لجائزته، ولكنه لا يستطيع أن يقنع أحدا بصدقه، لأنه ليس صادقا، والشاعر يعلم قبل غيره هذه الحقيقة المؤلمة ولكنه لا يفصح عنها إلا إذا اضطره الممدوح إلى ذلك ببخله، حينئذ يتحول المدح الزائف إلى هجاء صادق وهذا هو الأبيوردى يتعرض لموقف مثل هذا مع ممدوحه فيقول:

وقصائد مثل الرياض أضعتُها ... في باخل ضاعتْ به الأحسابُ
فإذا تناشدها الرواة وأبصروا الممدو ... ح قالوا: ساحر كذاب(١).

ومع هذا لم يخل هذا العصر من الشعر الجيد الذى يدل على موهبة أصيلة واستعداد قوى، ولا نعدم أن نجد من القصائد والأبيات ما يذكرنا بشعر كبار الشعراء، ولاسيما فى مجال الشكوى أوالرثاء أوالفخر حين يصدر الشاعر عن عاطفته، ويعبر عن خلجات نفسه، فنجد المعنى الجيد، والتصوير الطريف، والنسيج المُحكم، والأسلوب السلس، والألفاظ الشعرية الموحية.

ومن قصائد الفخر الجيد قول الأبيوردى:

أنا ابن الأكرمين أبا وأما ... وهمْ خيرُ الورى عمّاً وخالا
أشدّهم إذا اجتلدوا قتالا ... وأوثقهمْ إذا عقدوا حبالا
وأرجحهم إذا قَدَروا حلوما ... وأصدقهم إذا افتخروا مقالا
وأصلبهم لدى الغمزات عُودا ... إذا الخَفَرات خلّيْن الحجالا
فإن دعيتْ نزالِ مشوا سراعا ... إلى الأقران وابتدروا النزالا
يكبُّون العشارَ لمعتفيهم ... ويروون الأسنّة والنصالا
ويَثْنون المغيرة عن هواها ... إذا الوادى بظُعن الحىّ سالا
ويحتقبون أعمارا قصارا ... ويعتقلون أرماحا طوالا(٢)

ومن شعر النسيب الذى نهتز له بائية ابن الخياط التى يقول فيها:

خذا من صبا نجد أمانا لقلبه ... فقد كاد ريّاها يطير بلبّه
وإيّاكما ذاك النسيم فإنّه ... إذا هبّ كان الوجد أيسرَ خطْبه
خليلىّ لو أحببْتما لعلمْتما ... محلّ الهوى من مُغْرم القلب صبّه
تذكرّ فذوالذكرى يشوق، وذو الهوى ... يتوق، ومن يعلق به الحبُّ يُصْبه
غرام على يأس الهوى ورجائه ... وشوق على بُعْد المزار وقربه

(١) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى د: إبراهيم أبو الخشب ص١١ ولم أعثر على البيتين فى ديوان الأبيوردى الذى أتيح لى الاطلاع عليه.

(٢)ديوان الأبيوردى ٢٣٨.

إلى أن يقول:

أهيم إلى ماء ببرقة عاقل ... ظمئتُ على طول الورود بشربه

وأستاف حرّ الرمل شوقا إلى اللوى ... وقد أودعتنى السقمَ قضبانُ كُثْبه

ولستُ - على وجدى - بأول عاشق ... أصابت سهامُ الحبِّ حبّةَ قلبه(١)

فنحن هنا مع شاعر مطبوع يقول الشعر استجابة لعواطفه، فنحس نبض قلبه، وحرارة أشواقه، فى أسلوب سلس، وألفاظ رقيقة، وخواطر لها من صدق الواقعية والفطرية ما يمدها بطاقة سحرية للتأثير والإقناع.

وحتى فى شعر المدح عندما يصدق الشاعر مع نفسه، ويصدر فى مدحه عن إعجاب بعظمة ممدوحه، ويقول الشعر على سجيته بلا تكلف فى اللفظ أو مبالغة فى المعنى نجد شعرا جيدا، مثل مدح الطغرائى لنظام الملك وتهنئته بخلعة السلطان ملكشاه عليه، والذى يقول فيه:

حباك بما تحبو به كل زائر ... غدا يبتغى أخلاف نائلك الجزل

وما ذاك كى تزداد عزا، وإنما ... أبان به عن رأيك المحْكَم الجدْل

بمرموقة تُصبى العقول كأنما ... تخايلْت منها بين قولك والفعل

ومُسْتطعم فضْل العِنان كأنما ... ملاعبُ عطفيه سحوقٌ من النخل

إذا هزّه جنّ المراح توقرت ... بأطرافه أعباء حلمك والفضل

وأبيض طاغى الحد يرعد متنهُ ... مخافة عزم منك أمْضَى من النصل

عليم بأسرار المنون كأنما ... على مضربيه أنزلت آية القتل

تفيض نفوس الصّيد دون غراره ... وتطفح عن متنيْه فى مدرج النمل

تراه إذا ما امتاح كفُّك غمده ... تخايل ما بين القبيعة والنعْل

خلعت عليه نورَ وجهك فارتدى ... بنور كفاه أن يحادث بالصقل(٢)

ولا عجب فى أن يجود مدح الطغرائى لنظام الملك، فالطغرائى شاعر كبير بين شعراء عصره، بل لعله أكبرهم، وهو صاحب لامية العجم الشهيرة، ونظام الملك أبرز شخصية فى هذا العصر كان له من جهوده فى السياسة والإدارة ورعاية العلم وأهله ما جعله رجل دولة بكل ما تحمل هذه الصفة من معنى.

---

(١) ديوان ابن الخياط ١٧١، ١٧٢ (٢) الطغرائى ١٣ - ١٣.

وهكذا شهدت هذه الفترة عددا كبيرا ممن تعلقوا بقرض الشعر، منهم الأصيل ومنهم الناظم الدعى، وشهدت كثرة الشعراء العلماء الذين لم يفرغوا للشعر بل اتخذوه ترفا أو وسيلة يتقرّبون بها إلى ذوى النفوذ، ووجدنا لهذه الفترة تراثا شعريا كبيرا، فيه ما يصل إلى غاية الجودة، وهو ما أنتجه شعراء مطبوعون أخلصوا لفنهم، والكثير منه دون المستوى الفنى المرضى أنتجه أناس لم يخلصوا لفنهم، وإنما اتخذوه وسيلة كسب وأداة معيشة، فكان فى معظمه تقليدا تعوزه الأصالة، ونظما يفتقد الشاعرية.

وكلمة أخيرة أختم بها حديثى عن هذا العصر، فالحياة الأدبية فيه مازال يغلفها كثير من الضباب،ولعل الوقت قد آن لأن يلتفت مؤرخو الأدب لهذه الفترة، وتتضافر جهودهم لإجلاء غوامضها، وتحقيق تراثها الأدبى تحقيقا علميا دقيقا، والتوفر على دراسته.

فالعصر غنى برجال الأدب، ثرى بالتراث الأدبى، وأيّاً كان مستوى هذا الأدب فهو جزء من تراثنا، وقطعة من تاريخنا، وحلقة فى سلسلة حياتنا الأدبية..

وما كان هبوط المستوى الأدبى لينهض مبرراً لأن يصدف رجال الأدب عن دراسته، وتحليله، وتفسير ظواهره، ذلك أن واجب مؤرخ الأدب إزاء فترات الضعف يدرسها ويشخص أدواءها ويردها إلى أسبابها لا يقل عن مسئوليته تجاه فترات القوة والازدهار.